العرب
الأربعاء 2020/01/15
السنة 42 العدد 11587

إسرائيل تشرح كيف تربح من الانقسام الفلسطيني

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

كأنما الإسرائيليون يتعمّدونَ في كل يوم، تذكير القيادات الفلسطينية، بأن انقسامها يفتح الباب واسعا للإجهاز على حُلم الدولة الفلسطينية المستقلة، دون أن يكون لإسرائيل ما يترتب عليها في ناظر الأمم، أي مسؤولية مباشرة عن مآل قضية من أهم وأقدم القضايا العادلة على المسرح الدولي. ويراهن الإسرائيليون عندما يواصلون التذكير بما سيؤدي إليه هذا الانقسام، على أن طرفيْ الخصومة الفلسطينية، قد وصلا إلى درجة من عمى الألوان لا تصلح معها المعالجة، وأن العقول بدت عاجزة تماما عن القراءة التاريخية والإستراتيجية لما أصبح عليه حال الساحة الفلسطينية. وبالتالي فإن التذكير يؤدي وظيفته في التمهيد للدولة العبرية، لكي تبدأ تعاملها مع أمر واقع، تمثله حالة الانقسام، وعلى النحو الذي يخدم الخط الإستراتيجي لليمين المتطرف!

الإسرائيليون عندما يواصلون التذكير بما سيؤدي إليه هذا الانقسام، يراهنون على أن طرفيْ الخصومة الفلسطينية، وصلا إلى درجة من عمى الألوان لا تصلح معها المعالجة، وأن العقول بدت عاجزة عن القراءة التاريخية والإستراتيجية لما أصبح عليه حال الساحة الفلسطينية

فقد جاء التذكير الأخير، عبر تقرير أصدره "معهد دراسات الأمن القومي" في إسرائيل، حمل عنوان "تقديرات إستراتيجية للعام 2020" وتضمّن ثمانية فصول، كان الخامس منها يتعلق بالوضع الفلسطيني وكيفية التعامل معه. وفي ذلك الفصل من النقاط ما يؤكد مرة أخرى، على ما يشعر به كل مواطن فلسطيني بسيط، وهو أن إسرائيل هي المستفيدة إستراتيجيا من الانقسام، وأنه سيكون سببا في تضييع القضية التي بذل عشرات الألوف من الشهداء دماءهم على طريقها.

غير أن الفارق بين شعور وقناعة المواطن الفلسطيني ورؤية إسرائيل، أن الأول، في معظمه، ليس إلا نتاج الحَدسْ والأخذ بالبداهة التي يدركها الفلسطينيون بحكم تجاربهم. أما رؤية إسرائيل فإنها تقوم على شواهد وعلى وقائع سياق جار، في السياسة وفي الأمن، وفي المشهدين الإقليمي والدولي.

كتوطئة يقول التقرير في مقدمة الفصل الخامس، إن إستراتيجية إدارة الصراع التي تنتهجها إسرائيل منذ عشر سنوات، تتطلع إلى إرجاء قيام دولة فلسطينية في الضفة، لأطول مدة ممكنة، مع استمرار التعامل مع حركة حماس في غزة، ككيان مسيطر، لكنه بالمعيار الإستراتيجي ضعيف، ويمكن ردعه بطريقة غير مباشرة، تأخذ في الحسبان إبقاءه وحيدا من خلال إحباط إمكانية إجراء أي مصالحة بينه وبين قيادة السلطة في رام الله.

أما بالنسبة لهذه الأخيرة، فإن إسرائيل لا تأخذ على محمل الجد، تهديدات بعض قادتها بحلّها. وهنا يتحدث التقرير، بصراحة، مؤكدا على قناعة إسرائيل بأن الرئيس محمود عباس يرفض العنف، وبالتالي لديه من الحرص ما يوازي حرص إسرائيل نفسها، على منع سيطرة حماس على الضفة. وفي هذه النقطة يتجاهل التقرير ما أظهرته حركة حماس من استعداد للتخلي عن المقاومة المسلحة، وربما يكون هذا التجاهل عن إدراك بأن حماس ليست مستعدة لمد حكمها إلى الضفة، حيث يتداخل عمل السلطة فيها، بعمل سلطات الاحتلال، على النحو المشهود، وهذا أمر تتحاشاه حماس لأن من شأنه الإجهاز تماما على صدقيتها التي بدأت في التآكل أمام جمهورها نفسه.

لكن المحصلة -كما يقول التقرير- أن بقاء الانقسام الفلسطيني، سيكون أكثر من كاف، لأن تفقد القضية الفلسطينية أهميتها ومركزيتها، تدريجيا، في الخطاب السائد في المنطقة.

وينوّه التقرير إلى أن إسرائيل، فعلت الشيء الكثير، لكي تتقلص الأضرار الناجمة عن غياب عباس بالوفاة أو بالتنحي، لأن الشريحة السياسية التي معه، باتت من طراز ملائم، وبالتالي فإن إسرائيل لم تعد في حاجة إلى أن تتوّج بنفسها رئيسا. فالذي يأتي سيكون من أجهزة السلطة أو من قيادة فتح الحالية، وبالتالي لا مشكلة في من يأتي!

وكان ضباط سامون وخبراء إستراتيجيون وباحثون عسكريون وعدد من كبار المحللين في مراكز البحوث، هم الذين أعدوا التقرير الذي يجزم بأن حماس أصبحت في عمق مأزقها، وباتت حائرة ومتوترة بين مسؤوليتها كسلطة في غزة، وهويتها كحركة مقاومة، وهي اليوم تضع إسرائيل بين خيارين اثنين عقيمين بالنسبة لقناعاتها ورغباتها: إما التهدئة وإما التصعيد!

لكن الخيار الأفضل والقابل للتنفيذ بخصوص حماية مصالح إسرائيل الأمنية -وفق التقرير- هو إبرام اتفاق مع حماس، بوساطة مصرية، لوقف إطلاق نار بعيد المدى، يشمل تخفيفا للحصار وإطلاق مشاريع إعمار للبُنية التحتية. وبخصوص هذه الفقرة الأخيرة عن مشاريع الإعمار وتخفيف الحصار، تولت الصحافة الإسرائيلية تسريب أفكار وقضايا جاري التفاهم عليها بشكل غير مباشر، بين حماس وإسرائيل عبر الوسيط المصري. ولا زال التسريب جاريا جرعة جرعة، وكان آخره منذ ثلاثة أيام، من خلال الحديث عن خط غاز إسرائيلي إلى غزة!

وبخصوص إحدى أهم نقاط التعارض بين تكتيكات عباس وتكتيكات إسرائيل؛ رأت الدراسة "أن تبعات المحنة الإستراتيجية الفلسطينية ليست في صالح إسرائيل في ظل تصاعد انفجار أعمال عنف في غزة والضفة". وهنا كما يقول الإسرائيليون لعباس: مع احترامنا لنواياك ورغبتك في إخضاع حماس من خلال خنق غزة؛ فإن تكتيكاتك قصيرة النظر ولا تلائمنا، فنحن نرى أن الساحة الفلسطينية الراهنة تتيح لنا اعتماد سياسة تتعاطى مع الانفصال السياسي والجغرافي والسكاني بين الضفة وغزة، كأمر واقع، على أن تنعم أنت ومن معك، بسلطة فلسطينية مستقلة وناجعة في الضفة" حسب تعبير الدراسة، وأن تنعم حماس في غزة بسلطة لحسابها. معنى ذلك، أن إسرائيل -حسب تأكيد التقرير- ستتخذ خطوات تسوية محدودة في القطاع، تمكن على الأقل من إرجاء النزاع المقبل، من خلال العمل على قناتين: تعزيز السلطة الفلسطينية في الضفة، كعنوان شرعي وحيد لتسوية مستقبلية، مع تحديد هدف سياسي على شكل تسوية انتقالية تنتج شروطا لكيانين فلسطينيين صغيرين، مستقبلا، وذلك بالتزامن مع اعتبار حماس عنوانا مسؤولا مؤقتا في القطاع، والحصول على هدنة بعيدة المدى مقابل تسهيلات اقتصادية واسعة.

ليس هناك أوضح من هذا التذكير. فالإسرائيليون يعلمون أن طرفي الخصومة الفلسطينية، لن يلتقيا، وإن التقيا فإن الصيغة لن تخرج عن فكرة المحاصصة التي تُبقي على الانفصال الفعلي. ثم إن الإسرائيليين، كما الفلسطينيين، يعلمون أن قيادات السلطة وحماس، لا ترغب في استعادة المؤسسات الدستورية الفلسطينية. ففي كل الاتفاقات التي وُقّعت ولم تُنفذ، حرص الطرفان على وضع مسألة استعادة المؤسسات، في ذيل البنود، علما بأن الاستعادة هي الأساس الذي يمكن البناء عليه، حتى عندما تتعثر المصالحة.

المهمّ من يمسك بالدولار

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

كان الخطاب الأخير لحسن نصرالله الأمين العام لـ"حزب الله" في لبنان خطاب كلّ الكلام الذي لا علاقة له بالواقع. كان خطابا يحاول فيه إقناع اللبنانيين والسوريين والعراقيين، والإيرانيين أنفسهم، بأنّ "الجمهورية الإسلامية" قوّة إقليمية تستطيع متابعة مشروعها التوسّعي، بغض النظر عن تصفية قاسم سليماني قائد "فيلق القدس" في "الحرس الثوري".

ما لم يستوعبه نصرالله أن اغتيال سليماني، الذي كان يرافقه أبومهدي المهندس نائب رئيس "الحشد الشعبي" في العراق قرب مطار بغداد، كشف إيران. هل من نظام متخلّف أكثر من نظام يسقط فيه "الحرس الثوري" الإيراني طائرة ركاب أوكرانية أقلعت من مطار طهران بعدما اعتبرها صاروخ "كروز"؟ ألا يستحق ركاب الطائرة ضحايا الصاروخ الإيراني تعزية من نصرالله، علما أن معظم هؤلاء الركاب مواطنون إيرانيون أو من أصل إيراني؟

لنفترض أنّ الإيرانيين نزلوا إلى الشارع بالملايين لتشييع الجنرال سليماني وأن ذلك "أرعب" دونالد ترامب، ولكن ماذا عن الطلاب والمواطنين الإيرانيين العاديين الذين نزلوا إلى شوارع طهران ومدن أخرى وهم يحرقون صورا لقائد "فيلق القدس" الذي انتهى منه الأميركيون ويطلقون صيحة "الموت للدكتاتور"، أي لـ"المرشد" علي خامنئي. الأكيد أن هناك جديدا في الداخل الإيراني حيث بدأ الناس العاديون يشعرون أن النظام القائم دخل مرحلة جديدة لا تبشّر بالخير بالنسبة إلى مستقبله.

في الواقع، ليس لدى الأمين العام لـ"حزب الله" ما يقدّمه لا للبنانيين ولا للسوريين ولا للعراقيين ولا لليمنيين الذين يتذكّرهم بين حين وآخر. ما يعدُ به من ردّ على الولايات المتحدة يبقى كلاما كبيرا لا ترجمة له على أرض الواقع، نظرا إلى أن اللبنانيين مشغلون بلبنان والسوريين بسوريا والعراقيين بالعراق واليمنيين باليمن... والإيرانيين بإيران.

بالنسبة إلى اللبنانيين، لا يمرّ كلام الأمين العام لـ"حزب الله" سوى على قسم من أنصاره الذين سقطوا في فخّ التعصّب الأعمى والولاء للوليّ الفقيه. يمكن للكلام نفسه أنْ يلقى من يصدّقه ويصفّق له بين أنصار "التيّار الوطني الحر" الذي يترأسه جبران باسيل صهر رئيس الجمهورية. ليس مستغربا أن يُصدّق هؤلاء كلام نصرالله ما داموا يحتفلون سنويا بذكرى استيلاء الجيش السوري على قصر بعبدا ووزارة الدفاع في الثالث عشر من تشرين الأوّل - أكتوبر 1990، أي بهزيمة لبنان.

أمّا اللبناني العادي، من كلّ الطوائف والمذاهب والمناطق والطبقات الاجتماعية، فهو في مكان آخر. هذا اللبناني الذي يمتلك حدّا أدنى من العقل والمنطق يفكّر بما حلّ بأمواله المودَعة في المصارف اللبنانية. هناك مليون ونصف مليون حساب في هذه المصارف وهناك هبوط حاد لسعر صرف الليرة اللبنانية. هناك الكلام الصادر عن رياض سلامة حاكم البنك المركزي (مصرف لبنان) عن أن في استطاعة المصارف إعادة الأموال المودعة بالدولار، ولكن بالليرة اللبنانية. لم يوضّح رياض سلامة كلامه بما يكفي. ما يجري سرقة موصوفة لمدخرات الناس من فقراء وأغنياء ومتوسطي الحال. هذا هو السؤال الذي يشغل بال اللبنانيين، بما في ذلك أبناء الطائفة الشيعية الذين يشكلون ثلث المودعين. الأكيد أن هؤلاء، بمن في ذلك معظم الشيعة، لا يهمّهم الانتقام لسليماني أو للمهندس. ولا يهمّهم ما إذا كان الرئيس دونالد ترامب "أكبر كذّاب" أم لا. ماذا ينفع كلّ هذا الكلام عن ترامب في حال استمرّت الولايات المتحدة في عقوباتها على إيران، وبالتالي على أدواتها مثل "حزب الله"، مع ما يعنيه ذلك من انعكاسات سلبية على المصارف اللبنانية وأموال اللبنانيين؟

إلى أين يريد "حزب الله" أخذ لبنان بكل طوائفه ومذاهبه؟ لا جواب عن مثل هذا السؤال في غياب القدرة على أن يكون الرجل على تماس مع الواقع. هذا الواقع يقول إن السوريين، مثل اللبنانيين، يفكرون بسعر الدولار بعدما تجاوز سعره الألف ليرة سورية. إنّهم يعرفون تماما أنّ هناك نظاما جاء بالإيراني وبـ"حزب الله" وبغيره من الميليشيات المذهبية كي يبقى بشار الأسد في دمشق. إنّهم يعرفون أيضا أن الروسي يريد الآن أن يكون القوّة ذات الكلمة الفصل في سوريا وذلك بالتفاهم مع إسرائيل.

المنطقة دخلت مرحلة جديدة لم يعد ينفع فيها كلّ الكلام القديم عن المقاومة والممانعة وكلّ ما شابه ذلك. ما ينفع هو تحديد من أين سيأتي الدولار. المشكلة أنّه إلى إشعار آخر، لا تزال أميركا تمسك بالدولار وتتحكّم به

العراق أيضا في مكان وحسن نصرالله في مكان آخر. همّ المسؤولين العراقيين، الكبار والصغار، ليس الانتقام لقاسم سليماني أو أبومهدي المهندس. همّهم محصور في كيفية إعادة مدّ الجسور وفتح القنوات مع الولايات المتحدة وإدارة ترامب تحديدا. اكتشف المسؤولون العراقيون أن العقوبات الأميركية يمكن أن تطالهم، واحدا واحدا، في حال فكروا في أي ضغط لحمل الولايات المتحدة على الانسحاب عسكريا من العراق. لديهم مثل حيّ على ذلك. هذا المثل هو إيران. من الطبيعي في بلد مثل العراق ينخر فيه الفساد كل أفراد الطبقة الحاكمة أن يفكّر كلّ مسؤول في إنقاذ جلده، وليس في كيفية الردّ على اغتيال قاسم سليماني. ليست التحرّكات الأخيرة لعادل عبدالمهدي سوى محاولة لإعادة تعويم نفسه عند الأميركيين. وهذا ما يفسّر إلى حدّ كبير رحلته الأخيرة إلى كردستان. نسي عبدالمهدي أمرا في غاية الأهمّية هو أنّ هناك ثورة شعبية في العراق وأنّه مرفوض شيعيا قبل أن يكون مرفوضا لدى الأكراد والسنّة العرب. ليس صدفة تجدّد الحراك الشعبي في العراق، في كربلاء تحديدا، في الوقت الذي كان فيه قاسم سليماني يُوارى الثرى في مسقط رأسه الإيراني.

تبقى إيران نفسها التي بات شعبها يعرف أن النظام دخل مرحلة الأفول، خصوصا بعدما تبيّن أنّه عاجز عن الردّ على اغتيال قاسم سليماني من جهة، وإسقاط طائرة الركّاب الأوكرانية من جهة أخرى. السؤال لم يعد هل لدى إيران ما تردّ به على أميركا بعدما وجد النظام فيها أنّه في مواجهة يوميّة مع شعبه؟ هناك نظام في مأزق لا أكثر. هذا النظام سقط عمليا عندما تبيّن أنّه لا يستطيع مواجهة العقوبات الأميركية حتّى لو امتلك كلّ ميليشيات العالم.

في نهاية المطاف، تحتاج هذه الميليشيات إلى تمويل. من أين تأتي لها "الجمهورية الإسلامية" بتمويل بوجود قاسم سليماني أو بغيابه؟ دخلت المنطقة مرحلة جديدة لم يعد ينفع فيها كلّ الكلام القديم عن المقاومة والممانعة وكلّ ما شابه ذلك. ما ينفع هو تحديد من أين سيأتي الدولار. المشكلة أنّه إلى إشعار آخر، لا تزال أميركا تمسك بالدولار وتتحكّم به. يبدو أن إدارة دونالد ترامب تمسك به جيدا. هل في لبنان وسوريا والعراق من يريد أخذ علم بذلك بدل ترديد كلام قديم؟ لا يصدّق هذا الكلام سوى السُذّج نظرا إلى أن لا علاقة له بما يدور على أرض الواقع في المنطقة والعالم...